نبوءات محققة للذات

سكينتستادي. نيويورك. ١٧ مايو/أيار ١٩٥١

لقد مرَّ عليَّ عامٌ حتى الآن، وأنا أدرس علم الاجتماع في جامعة كلية يونيون، قريباً من موهاوك ريفر في المنطقة التي تُسمى "أب ـ ستيت نيويورك". إن الأسلوب الذي تتبعه هذه الكلية لدراسة هذا الموضوع هو تجريبي متشدد. إن البحث في مجال الوظائف الاجتماعية للإنسان والنماذج السلوكية له لا تبدأ من صور ذات أساس فلسفي أو ديني لطبيعة الإنسان الأساسية وهدفه، كما أن الأحكام القِيَمِيَّةَ (المبنية على القِيَم الجمالية فحسب) محظورة على أنها "غير علمية" في صالح المظاهر الكمية. وإن كلاً من المرأة والرجل يُعدَّان ويُقاسان فيما يتعلق بتفاعلاتهما الاجتماعية. كما أن وظيفتهما بالكامل ودورهما في الحياة إنما يُنظر إليهما من خلال التكامل الاجتماعي والفائدة التي يقدمانها فقط. ويتطابق هذا مع وجهة النظر الشهيرة لسيجموند فرويد في علم نفس الفرد والمفهوم المادي والميكانيكي للحياة والفكر. ويشبه هذا الأسلوب السلوكي الطريقة التي طبَّقها كارل فون فريش عندما حاول تحديد معدل الذكاء والعادات الوراثية للنحل.

ولقد اكتشفنا "القوانين" التي تحكم كافة الأنشطة البشرية والمجتمع قبل سنين من مجيء كتاب فانس باكرد "متسلِّقُ الهرم"، و"البرية الجنسية"، و"المُقنِعُ المختفي"، وكتاب كونراد لورنز "العدوان". إلا أننا لما نتنبَّه بعد للأثر العادي للبحث الاجتماعي: وكلما اتسعت قراءة الناس عن الشخص "العادي" طبقاً للبيانات الإحصائية، ازداد ميلهم إلى التماشي مع مبدأ "العادي".

إن علم الاجتماع هو نبوءة لتحقيق الذات! وحقاً، لقد كان زملائي الطلاب في جمعية الطلاب "بسي أوبسيلون" تتملكهم رغبة جامحة أن يظهروا "عاديين"، ومتماشين مع الوضع، ومسايرين للحال.

إن مثل هذا الأسلوب لتتبع الحقيقة البشرية لا يتوافق كما يبدو مع علم الإنسان [الإنثروبولجيا] المتأصل في الفلسفة. كما أن من الواضح أيضاً أن "لا أدرية" علم الاجتماع المتنكرة في هيئة علم السلوك كانت مُجبَرةً على صرف الناس عن النسيج التقليدي من الأخلاق الاستقلالية التي تدعم المجتمع.

ولن يكون شيءٌ أفضل تعبيراً عن هذا التحليل المنهجي للعوائق الأخلاقية من الرياضة الجنسية الصارخة المكرسة في بيئة الطلاب التي أنتمي إليها. فإذا كان التطابق أو: "مجاراة الآخرين" ينظر إليه على أنه الهدف المنشود لكل الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان، فإن كل شيءٍ، بما في ذلك الحقيقة، سيصبح نسبياً. وكما يقول جورج سايميل [*George Simmel*] "إن إنساناً بلا شخصية، هو إنسانٌ ليس له ضمير أو وعي اجتماعي".

إن هذا النوع من علم الاجتماع يدعي أنه غير عقلاني، بل إنه معادٍ للعقلانية. إلا أن هذا في الحقيقة إنما هو حالة مُعْتَقَدٍ زائفٍ تختفي وراءه الأشْرَاكَ المُضَلِّلة البدائية للعلوم الطبيعية. وفي الواقع، أليس من العقلانية البالغة ألا يسخر الإنسان، أو يرفض أن يسأل الأسئلة الأساسية عن الإنسان: من أين أتى؟ ولماذا أتى؟ ولأي سبب؟ وهي الأسئلة التي لم يستطع أن يتجنَّب توجيهها كلُّ الفلاسفة الجادين ورجال الدِّين خلال التاريخ بأكمله.

إن علم الاجتماع الذي يثيره علم التربية الذي يبحث عن الاتساق بأصغر قاسمٍ مشتركٍ، أليس هذا نتاجَ نظرةً عالميةً، وهي الفلسفة الفردية

أو العرقية في تفسير التاريخ أو تفسير الغاية من العالم كَكُلّ؟ نعم إنها بالتأكيد كذلك، وذلك لأن هذا النوع من علم الاجتماع يعدُّ النتائج التي يريد الحصول عليها قبل التصنيع. وبالنسبة له، فإن الإلحاد ليس فرضية مقبولةً، بل هو أمرٌ بَدَهِي. إلا أنه إذا أصبح هذا مفهوم العالم عن الأمريكان، فإن الأمر سيكون سِيَّانَ أيضاً في أوروبا. كيف لنا أن نتماشى ونتعايش مع معتقدٍ زائفٍ مثل "العلمية" الماركسية إذا نحن رفعنا الإلحاد إلى طريقة حياة، ونحن بهذا سنعرِّضُ نظام القِيَمِ الغربية إلى آثار "اللاأدرية" التامة، وبالتالي حياد القِيَم؟

حوادث لا ينجو منها المرء...

مدينة هولي سبرينغز. ولاية ميسيسيبي. ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٥١

لقد سافرتُ على طريقة "أركبني معك من فضلك"، ولستُ أحمل معي شيئاً أكثر من ملابسي للعمل كنادلٍ (أو على الأقل ماسحٍ للطاولات في المطعم)، من شمال ولاية نيويورك من خلال ولاية نيوجيرسي وولاية كارولينا الجنوبية إلى ولاية فلوريدا، عائداً بعد ذلك إلى ولاية جورجيا. وتوقعنا أن نصل إلى مدينة ممفيس في ولاية تينيسي في أي لحظة الآن. ولطالما حلمت أن أعبر جسر نهر الميسيسبي مشياً على الأقدام هناك.

وبعدئذٍ، ومن حيث لا ندري، ظهر أمامنا ظلّ شبحٍ لا ندري ما هو. واهتزتْ بارتعاش مفاجئٍ قدمُ السائق الذي كنت أجلس بجانبه عن دواسة البنزين. إلا أنه لم يكنْ هناك استخدامٌ للمكابح من قبل أيٍّ الطرفين.

وقرأنا في اليوم التالي خبراً رئيساً بعنوان: "صدامٌ وجهاً لوجهٍ" في الجريدة المحلية التي روتْ قصة السائق السكران الذي عبر الطريق السريع بعكس السير. وبعد فحصي في المستشفى شخَّصَ الأطباء حالتي كما يلي: "كسرٌ في الفكِّ العلوي للفم، تشوُّهٌ في الشَّفَةِ السفلى، وانخلاعُ تسعة عشر سناً وضرساً من الفم. وقد انخلعت ذراعي اليمنى من مكانها، وكانت هناك ندبةٌ عميقةٌ في ركبتي اليمنى، إلا أنني لم أعانِ من أعراض ارتجاجٍ في الدماغ، ولا من صدمةٍ نفسية.

لقد اصطدمت السيارتان من صنع شركة شيفروليه وجهاً لوجهٍ بسرعةٍ مجتمعةٍ بلغتْ تقريباً حوالي خمسة وتسعين ميلاً/ساعة. ولو أنني

قفزت من الطابق الخامس في مبنى مرتفعٍ لكانتْ احتمالات بقائي حياً مماثلةً لنتيجة حادث الاصطدام المذكور.

وبينما كان يحاول الطبيب الجرَّاح إعادة ترتيب وجهي الممزق إلى وضع قريبٍ من الطبيعي، تعجَّب بصوتٍ مرتفعٍ قائلاً: "كيف كان يبدو هذا الشاب قبل الحادث؟" وأومأت برأسي إلى الطبيب الجراح أن باستطاعته أن يجد جواز سفري في جيب بنطالي الممزق المصنوع من الجينز ليتعرَّف على شكل وجهي من الصورة الموجودة على الجواز قبل الحادث. ودقَّقَ الطبيب فترةً ليست بالقصيرة بين الصورة وبين معالم وجهي الممزق المبعثر، وأجال النظر بين الصورة والحقيقة المُرَّة، وأخيراً قال بصوت متردد: "إنه يمكنني أن أجري جراحةً تجميليةً بعد عدة سنواتٍ..."

وبعد أن أعطاني إبرة التخدير في الليلة الأولى من وجودي في المستشفى، هزَّ الطبيبُ الجرَّاحُ رأسه وقال بنوع من الاحتفاء: "يا عزيزي! إن المرء لا ينجو من حوادث مثل هذه! ولا شكَّ أن الله يخبئُ لك شيئاً في مستودع قَدَرِه."

وبعد تسعة وعشرين سنةً من هذا الحادث، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر عام ١٩٨٠ أدركتُ ما قاله ذاك الطبيبُ الجراح.

الصورُ تحدُّ الخيال

غرناطة . قرطبة . ٧ تموز/يوليو ١٩٥٨

لا غـرو أن الخـبراء الألمـان المـشهورين بخـبرتهم في الفـن الإسـلامي وهندسة العمارة الإسلامية، أمثال: إيرنست كهنل، وكاثرينا أوتو ـ دورن، وألفريد رنز، يرون أن من الصعوبة بمكان تحديد موضوعهم وتعريفه. وقد كانت النظـرة الإجماليـة لـ: "أوليج جرابـر" هـي أن الفنـانين الإسـلاميين كانوا اصطفائيين إلى حدٍّ كبير نظراً لخلفيتهم الشخصية واحتكاكهم مع الثقافات في كل من: سورية، والدولة البيزنطية، والفارسية، والقبائل التركيـة، واعتقـدوا أن هنـاك عنـصراً وحيـداً فقـط، وهـو الاسـتخدام التـزييني للخـط العربـي، هـو الـذي يمكـن اعتبـاره علامـة مميـزة خاصـة، وسمـةً مـن سمـات الفـن الإسـلامي. ومـع هـذا، فـيمكن القـول: إنـه حتـى الأطفال، يكادون لا يخطئون في تحديد التحف الفنية الإسلامية على أنها تنتمي إلى فئة محددة من الفن.

ولا شك، بالطبع، أنه لا توجد حركةٌ فنية (بما في ذلك الفن القوطي *Gothic*) بـدأت مـن الـصفر. وهكـذا، فلـم يعـرف الفـن الإسـلامي "سـاعة الصفر"، إلا أنه امتص تلك العناصر أثناء تطورها. ومهما كـان الأمـر، فـإن الإسلام دينٌ قادرٌ على ترجمة مظاهر محددة من الإيمـان إلى مبـادئ في علم الجمال.

ولا نعـدو الحقيقـة إذا قلنـا: إن هندسـة العمـارة الإسـلامية، وتحـسين المناظر الطبيعية، والديكور الداخلي، بغضِّ النظـر عـن تنوعاتـه الكـثيرة، تثير جميعها مشاعر إسلامية مكانية تتفاوت مـا بـين الأخـاذة إلى المتكلَّفـة وإلى الحميمة. ويمكننا، على سبيل المثال، تذوُّق هذا في مباني "الحمـراء"،

وساحات وأفنية أبنية "غرناطة"، أو في المساجد التي تشتمل على هذه المزايا على غرار تلك الموجودة في "قرطبة"و"القيروان" و"القاهرة"و"اسطنبول"، وفي الأخيرة بشكل خاص في "السليمانية"،و"مسجد السلطان أحمد"و"روتم باشا"، ومسجد "سكولو محمد باشا". وينطبق الشيء ذاته على "الحمراء" ومنطقة "الحرم المكي".

إن هناك عدة عناصر مسؤولة بشكل أساسي عن النوعية الإسلامية المتميزة لهذه التجربة الفنية، وهي كما يلي:

مثالية التواضع في المظهر الخارجي، وهذا ما يحكم الأمكنة الإسلامية تماماً بمثل الطريقة التي ترتدي المرأة المسلمة الجميلة حجابها عندما تخرج من بيتها.

الديمقراطية [والمساواة] والبنية اللاهرمية في الإسلام والتي تحكم أيضاً تخطيط "المصليات" و"المساجد".

درجة التجريد العالية، والتي تنضبط بالمفهوم الإسلامي عن الله ﷻ، وأنه يَتَمَيَّزُ عن الشبيه والمثيل والندِّ والنظير ﷻ.

الأبعاد البشرية للتناسب الهندسي للعمارة، والذي يعكس الاهتمام الإسلامي بالتوازن والاعتدال، والأسلوب المعتدل في كافة المواضيع والأمور.

تهوية الغرف بشكل يخالف التهوية السحرية المستخدمة في عبادات الطقوس، والتي تثبت غياب كلٍّ من الطقوس الدينية، والسرِّ المقدس، والغموض والألغاز في الإسلام.

شكلُ الحدائق يتبعُ ما وردّ في القرآن الكريم من وصفٍ للجنة.

فإذا وجد الإنسان نفسه في مثل تلك الأمكنة تحرَّك في داخله شعور بالابتهاج والسرور والاطمئنان (بكل ما في الكلمة من معنى)،

فالذي لا يستطيع أن يصلي في المسجد، لن يتعلم كيف يصلي في الكاتدرائية.

وإن غياب أي نوعٍ من التمثيل البشري للأشخاص، أو للذات الإلهية... أستغفر الله، وحاشا لله، في البيئة الإسلامية هو أقلُّ، بسبب اتباع ما ورد وصفه في القرآن الكريم من كونه خوفاً من الأصنام والأوثان والبُدِّية [وهي الإيمان بالتقديس الأعمى]. كما أن التجريد في فن الزخرفة العربية المتداخلة اللانهائية يعين الذهن على التركيز على حقيقة الله ﷻ التي لا يرقى إليها وصفٌ، ولا يسمو إليها تعريفٌ، ولا يطالها فكرٌ ولا قلم، ولا يُسْبَرُ غورُها، بل ويتعذَرُ فهمُها...

التسامح كَنُكرانٍ للذَّات

كامبريدج. ماسييتشوتس. ٤ حزيران/يونيو ١٩٦٠

في منتصف امتحاناتي النهائية في كلية القانون في هارفارد، تمَّ عقد قراني، ولتبسيط الموضوع، أقول: تمَّ عقد قراني في الكنيسة المحلية للجامعة في هارفارد، وقد عقد لي قسيسٌ من الطائفة النصرانية الموحِّدة [التي تنكر عقيدة التثليث]، وأما ما طرحه عليَّ هذا القسيس من أسئلة وإرشاداتٍ قبل الزواج، فقد اقتصر على سؤاله لي "ما إذا كنتُ متأكداً من براءتي تماماً من أية ميولٍ جنسيةٍ شاذَّةٍ كامنةٍ أو غيرها!"...

وكان فوق إفريز مذبح الكنيسة عبارةٌ كتبتْ فيها أسماءُ كلٍّ من: بوذا، وكونفوشيوس، وعيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ. وهذه اختياراتٌ من الأديان... فيها طُلْبَةُ كلِّ شخص!... ومما أثار عجبي: التسامح إلى حد إنكار الذات، ولكن ليس هذا التسامح كلياً. لقد تمَّ العبث بالتسلسل التاريخي بحيث يتم وضع اسم عيسى عليه السلام، في الوسط. وفوق ذلك، فإن هذا الترتيب يركِّزُ بصرياً على أن محمداً ﷺ كان آخر الأنبياء، وهو بالتالي خاتمُ الأنبياء.

وكان عليَّ بدلاً من التأمل في كل هذه الرمزية، أن أهتم بشكل أكبر بما تحمله طريقة عقد النكاح الإنجليزية القديمة. فعندما طُلِبَ منِّي أن أردِّدَ وراء القسيس: "أقبل أن تكوني زوجتي..." بدأتُ أتلعثمُ فوراً وأتأتئ...

لغةُ [كلام] الله؟

*Ghardia*غراديا ـ ٩ نيسان/أبريل ١٩٦٢

شاءت الأقدارُ أن أجلس إلى جانب رجلٍ من البربر *Mozabite* في حانة الفندق الوحيد في الواحة. وقد كان هذا الرجل يعاني من شدة تبريد المكيف (علماً بأنه كان يرتدي برنساً صوفياً ثقيلاً)، إلا أننا استطعنا أن نتجاذب أطراف الحديث قليلاً، وقد تجنبنا بحذرٍ شديد الخوض في نقاشٍ عن الحرب الجزائرية البائسة في الخارج.

وعندما فرغتُ من قولي لهذا الرجل: "إني فرغتُ للتوّ من قراءة ترجمة معاني القرآن الكريم بالفرنسية (وهو من ترجمة أو. بيسلي/أحمد تيداجني، القرآن الكريم، باريس ١٩٥٤)، لاحظت انزمامَ شفتيْ جاري وأنهُ أغلقْ فمهُ تماماً، بل وحتى بدا الشرُّ على وجهه. وانتبهتُ لنفسي مفكّراً: "إن هذا الرجل متمسِّكٌ تماماً بتفسير *Mozabite* للإسلام، وقد رأى فيَّ رجلاً قد انهمك في تدنيس المقدسات ـ الهرطقة التي يرتكبها الأشخاص الذين يحرِّفون الرسالة الإلهية التي تلقاها محمد ﷺ من جبريل عليه السلام بالعربية، وليس هناك بديلٌ عن هذه اللغة."

ولما لاحظتُ ردَّ الفعل العنيف على جهدٍ وعمل متواضعين لتقديم ترجمةٍ فقط، بدأتُ أفهم أمراً آخر تنبهتُ إليه أثناء مشيي في الأزقّة الضيقة المتعرجة في غراديا. ولا شكَّ أنني سمعتُ من خلال النوافذ المفتوحة لمدارس تحفيظ القرآن الكريم، سمعت الأصوات الصاخبة المتهدِّجة للأطفال وهم يقرؤون آيات القرآن الكريم ويرددونها بالعربية... اللغة التي لا يستطيع هؤلاء الأطفال البربرُ تحليل رموزها إلا بصعوبة بالغة، إلا أنهم بالتأكيد لا يستطيعون التحدُّث بها.

ولا غرو أن هذا التصميم على حراسة القرآن الكريم والمحافظة على لغته العربية الأصيلة هو أمرٌ ليس بدائياً، بل إنه على النقيض من ذلك تماماً. إن من المعقول جداً أنه إذا قَبِلَ الفردُ أن القرآن الكريم يجسِّدُ الرسالة الإلهية التي أنزلها الله ﷻ، كما أُنْزِلتْ كاملةً وصحيحةً دون تحريف فإنَّ النص القرآني يفوقُ بدرجةٍ منقطعة النظير حالة أيِّ نصٍّ مكتوبٍ آخر، بما في ذلك أيّ جزء من النصوص المصنَّفة والتي تُعْرَفُ باسم : "العهد الجديد". والفارقُ بينهما هو الفارق بين "الأدب الأصيل" وغيره.

وبناء على هذه الخلفية، وبما علمناه من التجارب المريرة التي حدثتْ أثناء عملية ترجمة الإنجيل من اللغة الآرامية باستخدام اليونانية واللاتينية إلى كل من اللغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، أليس من العجيب جداً إذنْ أن يحرص المسلمون على التعامل مع أصغر نصٍّ مهما كان من أصل القرآن الكريم باحترامٍ بليغ، فلا يلمسون القرآن الكريم إلا بأيدٍ متوضِّئة، وأجسام طيبةٍ طاهرة من النجس؟

كما ينبغي أن يدرك المرء حقيقة أن فلاسفة المسلمين، وهم يعرفون أرسطوطاليس، استنتجوا من قديم الزمن أنه، بما أن الله حيٌّ باقٍ على الدوام، وأنه كامل الصفات سبحانه، وأنه ثابتٌ مستقرٌّ في مكانه سبحانه، وأنه هو العليمُ الخبيرُ سبحانه، فيجب أن تكون رسالته سبحانه (كلماته وآياته) هي الأخرى أيضاً موجودةً أزليةً منذ القدم، وهي بكاملها محفوظةٌ حتى قبل أن توحى، وهكذا فقد ظهرت كما هي في التاريخ البشري. وقد قسمت قضيةُ خلْقِ القرآن الكريم، أمْ أنه غير مخلوق أساساً، قسمتْ العلماء المسلمين بالطريقة ذاتها التي شغلتْ علماء النصارى وقسمتهم قضية خلق العالم، أم أنه موجود أزلي.

ومع كل هذا، فليس من الضروري أن نؤمنَ ببساطة وسذاجة أن لغة الله ﷻ [اللغة التي يتكلم بها الله سبحانه]، هي "العربية". وقد تلقى رسول

الله ﷻ، وحي القرآن الكريم بهذه اللغة لسببٍ بسيطٍ، وهو أنه ﷺ: عربيٌّ بُعِثَ بين العرب، ولم يعرف ﷺ غير تلك اللغة. وكذلك لم يكن هناك أي سببٍ موجبٍ آخر لأخذ موضوع ترجمة معاني هذا الكتاب العظيم على أنها تحريف وهرطقةٌ طالما أن الترجمة لا تُقدَّمُ على أنها "بديلٌ" يحلُّ محل القرآن الكريم، أو تكون مساويةً أو معادلةً له. ولهذا السبب بالذات، فإن الترجمات التي قدَّمها علماءٌ مسلمون تظهر عادةً بعناوينَ مشابهةٍ لما يلي: "معاني القرآن الكريم"، وهي تحمل جنباً إلى جنب النص العربي في الكتاب ذاته.

ويبقى أمامنا سؤالٌ محيِّرٌ، بعد العديد من محاولات الترجمة، هل سيستطيع أحدٌ أن يحقق إنجازاً مرموقاً لترجمة معاني القرآن الكريم ترجمةً أقربَ ما تكون إلى معانيه العظيمة؟!... وينفي الكثيرون إمكانية ذلك.

كُحُولٌ لألمانيا...

الجزائر. ٣ مايو/أيار ١٩٦٢

كادَ عددٌ من أبناء بلدي الذين ينقّبون عن النفط في صحراء الجزائر الحجرية، كادوا أن يفقدوا أعصابهم، بل بلغ الحدُّ ببعضهم أنه هدَّد بإخلاء المعسكر. ولا عجبَ أن حرب التحرير تزحف نحوهم مقتربةً أكثر فأكثر، وبعد التراجع المتوقع للحرس الفرنسي ستكون هناك مجزرة.

ولذا، فقد أوعز إليَّ القُنْصُلُ العام الألماني في الجزائر، سيجفريد فون نوستيتنر، أن أرفع معنوياتهم بتقديم صندوقين من قوارير الويسكي: "الزيتُ لألمانيا".

ولقد اتجهت بالطائرة، خلال عاصفةٍ شديدة، ورافقني في الرحلة مدير شركة البترول الألمانية، وعبرنا سلسلة جبال الأطلس في طائرة من طراز دي سي ٣ مُتهالكةٍ من مخلفات الحرب العالمية الثانية. وكان صندوقا قوارير الويسكي أمامي على أرض الطائرة. ولم يكن الصندوقان مثلي مقيَّدين بحزام الأمان في مقعدي. وحاولتُ جهدي أن أبقيهما ثابتين في مكانهما دون حركة، إلا أنني عَبَثاً حاولتُ. فكلما تأرجحتْ الطائرة نزولاً وصعوداً ارتفع الصندوقان إلى مستوى مسند يد الكرسي الذي أجلس عليه وكأنهما يطفوان لحظةً، كأنهما في حالة انعدام الوزن، ثم يرتطمان بأرض الطائرة ثانية عندما تستوي الطائرة في الجو من جديد. وما أدركته جيداً: إن رحلتي دون قوارير الويسكي هي مضيعةٌ للوقت والجهد. فإذا لم نقدِّمْ الكحول، لم نرفع المعنويات...

ومع هذا، فإن الطائرة بأكملها قد أصبحت تفوح منها رائحةٌ قوية للويسكي، وكانت الحالة بأكملها سخيفة ومضحكة، حتى إنني وللمرة الأولى، لم أُصَبْ بالدوار من التحليق في الجو.

قوبلنا في معسكر العمل بمزيج من التحفظ والصمت والخوف والقلق، إلا أنه كان قد بقي لدينا من قوارير الويسكي ما يمكن أن يكفي الجميع بعد الذي كُسِرَ منها، على غرار ما يشبه الأفلام الغربية تماماً، وأكَّدتُ لمواطني دولتي أننا في العاصمة الجزائر نتحمَّل يومياً أموراً أكثر خطورةً من حرب العصابات في المدن. كما وعدتُهم أن أخرجهم من تلك البلاد إذا استدعتْ الضرورة ذلك.

وكما قلتُ آنفاً: لم أكن مقتنعاً تماماً بما أفعل. ولم أستطعْ إلا أن أتوقَّع مصير القوة الجزائرية من أبناء البلاد من *Harkis* الذين يحرسون هذا المعسكر. وقف هؤلاء الحراس حولنا هادئين غارقين في التأمل والتفكير، لم يلفحْهُمْ لهيبُ السُّكْر، وكانت ثقتُهم على أساسٍ من إيمانهم، وإيمانهم وحده، وهو الإسلام. بينما كانت معنويات العمال الألمان بحاجة إلى الكحول لرفعها وتحسينها...

وجدتُ الحلَّ...

الجزائر. ٢٨مايو/أيار ١٩٦٢

لقد شهدتُ خلال الأشهر التسعة الأخيرة، بحكم كوني ملحقاً في القنصلية الألمانية العامة في الجزائر، مشاهد إرهابٍ وجرائم شنيعة. وكادتْ لا تمرُّ ليلةٌ دون انفجارٍ، بل كنا نسمعُ مئةً أو أكثر من الانفجارات المدوية في بعض الليالي. ويمرُّ شهرٌ وراءَ شهرٍ، ونلاحظ أنه في مدينة الجزائر وحدها يسقط حوالي ألف قتيلٍ، ومعظمهم يُرْمَوْن من مسافاتٍ قريبة جداً. كانت جبهةُ التحرير الوطنية تقاتل ضد فرنسا من أجل استقلال الجزائر.

Pides Noris والفرنسيون والمستعمرون الإسبان في مستعمرة الجزائر يحاربون ضد باريس أيضاً، إلا أنهم كانوا يحاربون للحفاظ على إبقاء البلاد تحت السيادة الفرنسية. وكان جيشهم السريُّ المعروف باسم "منظمة الجيش السري" هو الذي يرسل شاحنات البنزين القابلة للاشتعال إلى الأحياء الجزائرية ويحاولون اصطياد الرجال الجزائريين وكأنهم أرانب. وكنت أشاهد من شقتي في حي "البيار" ما بقي من القرية الجبلية بعد مداهمتها والهجوم عليها باستخدام أسلحة النابالم التي استخدمتها القوات الفرنسية. وعندما كنت أبحث عن المرضى الألمان في مستشفى مصطفى، كنت أرى ضحايا جديدة تُحمَل إلى المستشفى في حالة إسعاف كل عشرين دقيقة، وكانت الإصابة واحدة لا تتغير في معظم الحالات وهي عيارٌ ناريٌّ في الرأس أُطْلِقَ من الخلف.

كانت هناك معاهدة لوقف إطلاق النار يحترمها الطرفان: فرنسا وجبهة التحرير الوطنية، كما تمَّ تحديد تاريخٍ للاستقلال. وبالتالي، فقد

كانت منظمة الجيش السري والتي تشتمل قياداتها على العديد من الضباط المرموقين في صفوفها، والتي كانت تسعى حينها بقلق شديد مُحَاوِلَةً استفزاز الجزائريين وإثارة غضبهم من خلال الإرهاب المتزايد ليقوموا بالثورة، وهكذا فهُمْ يخرقون اتفاقية وقف إطلاق النار مع فرنسا ويؤجلون الاستقلال إلى أجل غير محدد.

وقد بدأ فدائيو منظمة الجيش السري باستخدام هذا التصميم الشرير الخفيِّ لحلِّ تجمُّع الشباب الجزائريين المثقفين في الجامعات، والنساء الجزائريات، والذين كانوا حتى ذاك الوقت منطقةً محرَّمةً لا يستطيع أحدٌ الاقتراب منها، يُقْتَلون أثناء ذهابهم للتبضُّع وشراء الحاجيات.

ولما عاد أولاد جارنا إلى منزلهم مشدوهين قبل أيام، وتبدو عليهم علامات الانزعاج الشديد من التصرفات الوحشية التي شاهدوها تُرتَكب ضدَّ الجزائريين، حاولتْ أمُّهُم تهدئة مشاعرهم قائلةً: "هؤلاء مجرَّدُ عرب!..."

وقد حاولتُ خلال تلك الفترة، حيث كنت مسلحاً دائماً بمسدس مَصْلِيٍّ جاهزٍ للإطلاق، من طراز ولذر بي كي عيار ٧,٦٥مم، حاولتُ عبثاً أن أبحث عن السرِّ الذي أتاح لهؤلاء الجزائريين المهذبين المنضبطين *stride* كثيراً من الاحتقار، والإساءة والعقوبة. وأخيراً وجدتُ الحلَّ أثناء إعادة قراءة القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٥٣: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

كيف يضعُ المسلمون علامةً صغيرة...

بون ـ ١٧ تشرين أول/أكتوبر ١٩٦٤

كنت مسؤولاً خلال السنتين الماضيتين، على مستواي في القسم السياسي للمكتب الأجنبي، عن العلاقات الألمانية مع كل من: الهند، والباكستان، وسيلان، ونيبال، *Bhutan, Sikkim*.

وبغضِّ النظر عن عدد المرات التي تعاملتُ فيها مع أيٍّ من الهندوس أو البوذيين الهنود أو السيلانيين، لم أكنْ لأستطيع توقُّع ردودِ أفعالهم. ومن ناحية أخرى، فقد كنت أستطيع، على ما يبدو، أن أعرف بالضبط كيف ينبض قلب الباكستاني أو الهندي المسلم، أو حتى البنغالي. كانت ردودُ أفعال هؤلاء متوقعةً بالنسبة لي. ولم تكن هذه الظاهرة بسبب أي علاقاتٍ خفيةٍ روحيةٍ بين الشعبين الهندي والألماني. لقد كان هناك تفسيرٌ أكثر عقلانيةً من هذا التفسير: إن المسلمين يعتقدون بدينٍ، كديننا، يعتمد على كتابٍ لا يمانعُ أي تساؤلٍ معقول. وهم أيضاً "أهلُ كتاب".

وقد أكَّد البروفيسور الأستاذ محمد حميد الله، العالم الهندي المتعدد اللغات، أكد هذه النتيجة عندما أذاع عام ١٩٤١ أن دستور اتحاد المدينة الذي أصدرهُ محمد ﷺ في السنة الأولى من الهجرة كان أول دستورٍ مكتوب في تاريخ الدولة.

والشكر موصولٌ لابن إسحاق الذي حفظ لنا هذه الوثيقة المدهشة ووصلتنا بتمامها وكمالها، وهي تشتمل على اثنتين وخمسين مادة. وقد عالجت هذه الوثيقة التكامل الاجتماعي والاقتصادي بين المهاجرين من مكة، والعلاقات القانونية بين هذا التكتل الاتحادي اليهودي والقبائل

العربية، وقواعد التعاون المتبادل، والتحالف الحربي، والتحكيم، وحقُّ منح اللجوء (محمد حميد الله، أول دستورٍ مكتوبٍ في العالم، الطبعة الثالثة، لاهور، ١٩٧٥).

وبمثل هذه الخلفية، سيكون من العجيب ألا يجد كل من القانونيين الغربيين المدربين، والدبلوماسيين المسلمين، أرضاً مشتركةً لهم.

حبٌّ بدولارٍ فقط...

هونغ كونغ. ١٦ حزيران/يونيو ١٩٧١

توقفتُ خلال رحلتنا الطويلة إلى اليابان وكيوتو للمشاركة في المشاورات التي أجريت بين كل من الموظفين الألمان واليابانيين للتخطيط للسياسة الخارجية، توقفْتُ مع رئيسي الدكتور ديرك أونكين، في هونغ كونغ.

وأثناء تحليقنا فوق فيتنام، استطعنا أن نشاهد الهجوم الجوي ضدَّ خطِّ الزعيم الراحل هو شي مينه، وفي الأثناء ذاتها كنَّا مأخوذين بلمسةٍ من الروعة الحالمة حيث قدَّم لنا مضيفنا الجوي في طائرة الخطوط الجوية الفرنسية وجبة رائعة أعدَّها "رتز". وكانت مستعمرة التاج البريطاني في هذه المرحلة الحاسمة قاعدة عادية للجنود خلف خط الجبهة، "منطقة استجمام وراحة". وكأن أحداً ما نادى بصوتٍ واضحٍ ومسموع: "هنا يتَّحِدُ كلُّ مومسات الدول".

وكان لا بدَّ للسائح الغربي أن يصارع ويحاول إبعاد تلكم الفتيات عندما يمشي في شوارع مركز المدينة وكأنهنَّ يُشْبِهْنَ البعوض. ومما حزَّ في نفسي بشكلٍ خاص أنَّ مراهقةً صينيةً تعلَّقتْ بي متوسلةً توسُّل الذل والانكسار قائلة: "دولار واحد يا سيدي!". وإذا أرادتْ كسبَ المزيد، فلا بدَّ من عرض المزيد من الانحراف الجنسي، كما تفعل بعض أشكال السادية الصينية التي تتبعُ عمل قوم لوطٍ.

وأيما كان الأمر، وكما كان الحال، فقد كانت القوات الأمريكية، حتى في أيام ما قبل مرض الإيدز - فقدان المناعة - ، تعاني الكثير من الأمراض الجنسية التناسلية مثلما تعاني من ويلات الحرب الحقيقية.

وكلَّما أدى التدهور والتفسخُ الجنسي إلى مشاكل لدى عامة الناس، لاحظنا أن ردود فعل النصارى كانت متوقعةً. فمبدئياً، كان هناك تأرجحٌ واهتزازٌ وتنبيه باستخدام "مؤشر" الأخلاق، بل لقد اعتبر البعضُ أن الشاذين جنسياً ومدمني المخدرات كانوا فعلاً وحقاً ضحايا يستحقون انتقام الله. وبعد فترة، وعلى ضوء التفسيرات المعتدلة التي استحسنت تلك الأعمال وأيدتها، فقد تمَّ رفض تلك التحليلات واعتبرتْ "غير عقلانية". بل على النقيض من ذلك، فقد تمَّ تذكير النصارى بأنه يجب عليهم أن يظهروا الشفقةَ والرحمةَ لجيرانهم الذين جلبوا البؤسَ لأنفسهم.

إن المسلمين يرون الأمور بمعيار من العقل والوعي. فهم يدركون أن القواعد التي سنَّها الله وفرضها للسلوك البشري لم يجعلْها لنفسه، بل فرضها على البشر. وسواء تقيَّد البشر بهذه المعايير "الأخلاقية" و"الخلقية" أم لا، فلن يضرُّوا الله شيئاً. وكما وصف الشيخ عبد القادر الجيلاني، ووافقه فيما ذهب إليه "ابن عربي" فإن: "إن الله غنيٌّ عن عباده". إذا احترم البشر هذه القواعد الإلهية فإنهم ينفعون أنفسهم، ليس غير.

فإذا أخذنا حالة سائقٍ مخمورٍ يرتطمُ بشجرة، أو حالة شخص شاذٍّ جنسياً أصيب بمرض الإيدز فأصاب بعدواه زوجته التي لا تشكُّ فيه: فإن الآليةَ هي ذاتها. إنها ليست "عقاباً"، إلا أنها نتائج "طبيعية" لمناقضة الفطرة البشرية السليمة ومخالفتها، والتي نحن جزءٌ منها.

ومن خلال هذا المنظور، فإن من المناسب جداً أن نسمي قواعد السلوك الإسلامية، والتي تُسمى "الشريعة" هي "الطريق" السليمة الصحيحة للحياة البشرية. وهذا ما يؤكد للمسلم ضرورة الالتزام بهذه الشريعة والبقاء على منهاجها، وكلَّما قرأ المسلم في صلاته سورة "الفاتحة" سأل الله الهداية إلى "الصراط المستقيم".

في مضامير الأسقف آريوس...

فيينا ـ ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤

قدَّم السِّير ريتشارد بورتون (١٨٢١ ـ ١٨٩٠)، المستكشف الإنجليزي، عرضاً مصوراً دقيقاً لمغامرته في كتابه: الرواية الشخصية عن الحج إلى المدينة ومكة، بعد وقت قصيرٍ من رحلته المضنية الخطرة إلى الحج إلى المدينة ومكة عام ١٨٥٣. ولا غرو أن هذا الكتاب ليس له نظيرٌ في غنى معلوماته عن منطقة الحجاز.

ولقد أثار هذا الكتاب عجَبَ الكثيرين في المجتمع الفيكتوري في ذلك الحين، وذلك لأن الكاتب بورتون كذب كثيراً على ما يبدو عندما تظاهر بأنه مسلم. إلا أن عدداً من النقَّاد الآخرين اتهموه على النقيض من ذلك: ألم يكنْ بورتون مخلصاً جداً بتصرُّفه كما يتصرف المسلم؟ ولا شكَّ أنه تظاهر بأنه اعتقد بهذا الدِّين، وأنه محبٌّ للتاريخ، واللغة، والحضارة الإسلامية إلى درجةٍ لم يسبقْهُ أحدٌ إليها.

واليوم، لا نملك إلا أن نقول إن بورتون لم يصبحْ مسلماً فحسب، بل لقد أصبح صوفياً متبعاً لطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهي حقيقةٌ لم يستطع المؤلف سوى أن يشير إليها في الطبعة الثالثة من كتابه عام ١٨٧٩. وفي ذلك الوقت، وبروحٍ صوفية موحِّدَةٍ، أشار بورتون إلى أن المسلمين (الذين يحترمون إبراهيم عليه السلام) كما هي الحال بالنسبة للنصارى الموحدين، أي: أتباع آريوس الذي يعتقد بأن المسيح عليه السلام غير مساوٍ لله ﷻ، وأنهم أقربُ إلى تعاليم عيسى عليه السلام من النصارى الذين اتبعوا التفسيرات المتأخرة التي قدَّمها القديس بولس والأسقف آثانسيوس. وكان المسلم على كل حال أكثر علماً، وأكثر تسامحاً، وأكثر إخاءً من كثيرٍ من النصارى.

ولاشكَّ أن بورتون قد وجد أنه من المستحيل التغلُّبُ على آلية الدفاع النموذجية التي يستخدمها الغربيون ضد حقائق الإسلام ويقللون من شأنه مما لا يتناسب مع تحيزاتهم التي يفضلونها. وإن هذا الاعتراض النفسي للفكر يعمل اليوم بالطريقة ذاتها التي عمل بها أثناء الحرب الصليبية، بغضِّ النظر عن التحول الحديث لوضعية الفاتيكان تجاه الدِّين الآخر.